﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾﴾ [النحل: 15 - 16]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتينِ لما قَبْلَهُما:

تمامُ النِّعَمِ في كمالِها واستقرارِها، ومعرفة حقّ الله فيها

لَمّا ذكر في الآياتِ السّابقَةِ الامتِنانَ بتَسْخيرِ الزَّمانِ بما خَلَقَ مِنْ حَرَكَةِ الشَّمسِ والقَمَرِ، وما سَخَّرَهُ مِنَ النِّعَمِ في الأرْضِ والبَحْرِ وما فيهما مِنْ عَطايا ومَنافِعَ، ناسَبَ أنْ يَذْكُرَ بعد ذلك الامتنان بالنِّعَمِ الظّاهِرَةِ على الأرْضِ ومَدَى عَظَمَتِها وآثارِها في نَفْعِهِم ووِقايَتِهِم، وهي نِعْمَةُ الجِبالِ الرَّواسي، فلَوْلا هذه النِّعمة لَما ثَبَتَتْ نِعَمُ الأرْضِ والبَحْرِ، ولما اسْتَقَرَّ حالُ البشر، فالمُناسَبَةُ هي الانْتِقالُ مِنْ ذِكْرِ النِّعَمِ المُتَنَوِّعَةِ، إلى ذِكْرِ تَثْبيتِ تِلْكَ النِّعَمِ، وهذا مِنْ تَتْميمِ الكَلامِ، وتَقْريرِ الحَقائِقِ، وتَحْقيقِ المعاني.

ويوجَدُ مُناسَبَةٌ أُخْرَى، وهو أنَّه لَمّا ذَكَرَ النِّعَمَ الزَّمانيَّةَ والأرْضيَّةَ والبَحْريَّةَ، ناسَبَ أنْ يَذْكُرَ في هذه الآياتِ السُّبُلَ والعَلاماتِ والنُّجومَ لِلاهْتِداءِ بها في الحَياةِ الدُّنْيا، وهو كذلك تَتْميمٌ بِذِكْرِ نِعَمٍ إرْشاديَّةٍ، لِلْإشارَةِ إلى غاياتِ تلك النِّعَمِ، وهو الاهْتِداءُ إلى الدّينِ الحَقِّ، فمَنْ عَرَفَ نِعَمَ اللهِ عليه؛ عَرَفَ حَقَّ اللهِ عليه، فهذه النِّعَمُ أدَقُّ وأخْفَى ظُهورًا لَدَى عامَّةِ النّاسِ، بِخِلافِ النِّعَمِ السّابِقَةِ فهي أظْهَرُ، ولذا تَرَقَّى الخِطابُ في ذِكْرِ النِّعَمِ، وتَدَرَّجَ، فبَدَأ بما يعرفُه عُمومُ النّاسِ، وانْتَهَى بِما يَنْتَبِهُ لَهُ خُصوصُ النّاسِ، وهَذا مِنْ بَديعِ المُناسَباتِ في القُرْآنِ.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَمِيدَ﴾: المَيْد: هو تَحَرُّكُ الشَّيْءِ العَظيمِ واضْطِرابُهُ، ومادَ الشَّيْءُ: إذا تَحَرَّكَ مِنْ جانِبَيْهِ ومالَ يمينًا وشمالًا، ويُقالُ: المَيْدُ في

التَّحَرُّكِ الواسع، ولذا يَتَعَلَّقُ بالجسم المُترامي العظيم، والمُرادُ في الآيةِ: كَراهةُ أنْ تَضْطَرِبَ بِكُم وتميل[1].

2) ﴿وَسُبُلًا﴾: السُّبُلُ: جَمعُ السَّبيلِ، وهو الطَّريقُ الَّذي فيه سهولة، أيْ: خالٍ مِنَ الوُعورَةِ ومَشَقَّةِ السّيْر، وأصْلُ (سُبُلٍ) يَدُلُّ على امتدادٍ في شَيْءٍ، ذلك أنَّ الامتدادَ في الشَّيْءِ سُهولَةٌ فيه، والمُرادُ: وجَعَلَ فيها سُبُلًا أوْ شَقَّ فيها سُبُلًا[2].

3) ﴿وَعَلَٰمَٰتٍ﴾: جَمعُ عَلامَةٍ، وهي المَيْزَةُ المَنْصوبَةُ في الطَّريقِ، يَهْتَدي بها السّائِرُ في تَصْحيحِ سَيْرِهِ، وأصْلُها (عَلَمٌ) وهو يدلُّ على الأثَرِ الظّاهِرِ بِالشَّيْءِ الَّذي يَتَمَيَّزُ به عن غَيْرِهِ، وسُمّيَتْ علامة؛ لأنّ الاهْتِداءَ بها يوجب العِلْمَ بِالسَّبيلِ فلا يَضِلُّ مُجْتازُهُ وعابِرُهُ فيه، والمرادُ: العلاماتُ في الطُّرُقِ كالجِبالِ والأعْمِدَةِ وغيرِها[3].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

نِعَمُ اللهِ معونةٌ عـلى المـعـاش والمعاد

تُبَيِّنُ الآيةُ نعمةَ إلقاء الرَّواسي الشّامِخاتِ في الأرْضِ، وهي الجبالُ العَظيمَةُ؛ لِتَثْبيتِها وإرسائها حَتَّى لا تَميلَ فتَضْطَرِبَ، ونِعْمَةُ شَقِّ الأنْهارِ؛ ليَشْرَبَ منها الخلقُ، ويَزْرَعونَ ويَسْقونَ، وجَعَلَ فيها طُرُقًا سَهْلَةً مُذَلَّلَةً؛ للهدايةِ إلى المَنافِعِ والمَقاصِدِ المَعاشيَّةِ، والاسْتِدْلالِ بها على مَعْرِفَةِ الخالِقِ، وجَعَلَ في الأرْضِ مَعالِمَ يُهْتَدَى بها في السَّيْرِ نَهارًا، وجَعَلَ النُّجومَ في السَّماءِ يُهْتَدَى بها في اللَّيْلِ في البَرِّ وفي البَحْرِ، وهي نِعَمٌ تَحْتاجُ إلى نوعِ تَفَكُّرٍ وتَأمُّلٍ، لَيْسَتْ كالنِّعَمِ السّابقة، فهي أكْثَرُ ظُهورًا لعامَّةِ النّاسِ.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وابن منظور، اللسان، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (ميد).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (سبل).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (علم).

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الواو ودلالتها في قوله ﴿وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾:

نِعَمُ اللهِ سابغةٌ على العبادِ ظاهرًا وباطِنًا

جُملَةُ ﴿وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ مَعطوفَةٌ على جُملَةِ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلۡبَحۡرَ﴾، فالواوُ لِلعَطفِ، ووَصَلَ بَيْنَ الجُملَتَيْنِ بالعاطف، للانتقال مِنْ سياقِ الامتِنانِ بما في الماءِ والبَحرِ مِنَ النِّعَمِ المُسَخَّرَةِ إلى سياقِ الامتِنانِ بما على اليابسةِ والأرْضِ مِنَ النِّعَمِ والعَطايا، وبَيْنَ الجُملَتَيْنِ مُقابَلَةٌ مَعْنَويَّةٌ على اعتبار أنَّ قَوْلَهُ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلۡبَحۡرَ﴾ حَديثٌ عَنِ الأغْوارِ الهابِطةِ المُتواريَةِ، وقَوْلُهُ: ﴿وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ﴾ حَديثٌ عَنِ المُسَطَّحاتِ المَكْشوفَةِ المَرْئيَّةِ[1].

سرُّ إيثارِ مفردة الإلقاء على الخَلْق:

الإلقاءُ يوحي بأنَّ الجبال من خارج الأرض

آثَرَ النَّظْمُ ذِكْرَ إلْقاءِ الجِبالِ لا خَلْقَها في قَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ﴾، وذَلِكَ أنَّ الخَلْقَ كان ابتداءً، وذِكْرُ الإلقاء يَتَضَمَّنُ الخَلْقَ والإيجادَ، ويَتَضَمَّنُ أنَّ الجِبالَ مِنْ خارِجِ الأرْضِ ليس مِنْها[2]، بِخِلافِ ما فيها مِنْ أنْهارٍ وسُبُلٍ، فإنْ قُلْنا: عَبَّرَ عَنِ الخَلْقِ بالإلْقاءِ، فمَحْمولٌ على المجاز، وإن قلنا اسْتَعْمَلَ الإلْقاءَ وأرادَهُ؛ ليَتَضَمَّنَ الخَلْقَ مِنْ بابِ التَّنْبيهِ على البداية بالغاية، فمَحْمولٌ على الحقيقة، والحَملُ عَلَى الحقيقة مُقَدَّمٌ؛ لِأنَّهُ الأصْلُ، وهو هنا أبلغ؛ لِتَضَمُّنِهِ دِلالَةً أوْسَعَ.

فائدةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ على المفعولِ:

الاختصاصُ والقصرُ وتشويقُ المخاطَب

قَدَّمَ النَّظْمُ الكَريمُ الجارَّ والمَجْرورَ على المَفْعولِ في قوله تعالى: ﴿وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ﴾، وذلك للاختصاصِ والقصرِ، أي: ألقى في الأرض لا في غيرها، وهو الأوْجَهُ لاتِّفاقِ تَقَدُّمِ الجارِّ والمجرور في

(1) البقاعي، نظم الدرر: 11/ 126، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 120، ومحمود صافي، الجدول: 14/ 293.

(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/ 384.

القرآن كلِّه على الرّواسي، كما أنَّه يُفيدُ التَّشويقَ، فإنَّ المخاطَبَ إذا سَمِعَ بأنَّه أُلقي في الأرضِ شيءٌ يتشوّقُ لمعرفة ماهيَّتِه.

بلاغةُ اسْتِعْمالِ حرف ﴿فِي﴾ دون (على):

العبرةُ بالحقيقةِ الواقعيّة لا بالمشاهدة البصريّة

جاء التّعبيرُ بحرف الظَّرفيَّة دون الاستعلاءِ في قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ﴾ فلم يَقُلْ: (على الأرض) والجبالُ الرّواسي مرئيّةٌ على الأرض لا في داخِل الأرض؛ وذلك للدّلالة على أنّ استعلاءها على سطح الأرض هو نتيجةٌ عن تواري امتدادها وأصولِها في باطن الأرضَ، فإلقاءُ الجبال - على الحقيقة - بدايتُه في الأرض، ونهايتُه على الأرض، فآخِرُ ما يَظهر من الجبال هو نهاياتُها الّتي تعلو الأرض، ولا يخفى ما في التّعبير بحرف الوعاء (الجرّ) ﴿فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ﴾ من الدّلالة على استحكام الجبال وغَوْصِها في أغوار الأرض، فكتلتُها الظّاهرةُ العظيمة ممسوكةٌ بكتلةٍ باطنة غائصة، ولذا كانت رواسيَ وأوتادًا تُعشِّقُ في داخل الأرض كما يُعشَّقُ الوتَدُ في داخل الشّيء الذي يُمسِكُه، فحرفُ الظَّرفيّة، جاء استعمالُه حقيقيًّا، فالجبال في الأرض لا عليها، والعبرة في الحقيقة الواقعيَّةِ لا في المشاهدة البصريِّة.

معنى التَّعريفِ في كلمةِ الأرض:

الجبالُ في مجموعِ الأرض لا في جميعِها

(ال) في الأرض لتعريف الجنس، والمراد هنا تعريف حقيقة الجنس، فالمرادُ حقيقة الأرضِ المعروفة في الأذهان، وليس المرادُ استغراقَ الأرض كلّها في إلقاء الرّواسي عليها[1]، وهو ما يُؤيِّده النَّظر في كامل الأرض، فإنَّ الجبال لا تستغرقُها، وإنَّما هي في مواضع دون أخرى، فالعبرة بكاملِها الكلّيِّ، لا بكاملِها المستغرق لِكُلِّ جُزْئيٍ.

نكتةُ التَّعبير بالرَّواسي دون مرادفاتها:

كلمة ﴿رَوَٰسِيَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ﴾ صفةٌ

(1) فاضل السامرائي، معاني النحو: 1/ 116.

لموصوفٍ مَحْذوفٍ، أيْ: جبالًا رواسي، فحذف الموصوف إيجازًا لوضوحه بقرينة السّياق، واصطفى لفظ ﴿رَوَٰسِيَ﴾ خاصّةً لوصف الجبال بها، للدِّلالةِ على ثبوت أصلها في قعر الأرض وتغلغُلها في باطنها[1]، فذكر الصّفة دون الموصوف ودون سائر الصفات؛ لبيان وظيفتها الجيولوجيّة، فبها يظهر الامتنانُ، ويرسّخ الإنعام.

التّنبيهُ على الوظيفة الجيولوجيّة لا السِّمَةِ الجمالية

بلاغةُ صيغة الجمع في السياق:

آثرَ النَّظْمُ الإتْيانَ بصيغة جمع (فواعل) في قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ﴾، ولم يَقُلْ: (وألقى في الأرض راسيات) بجمع المؤنث السالم؛ بل آثَر التعبيرَ بصيغة جمع التكسير ﴿رَوَٰسِيَ﴾، للدّلالة على معنى الاسميّة الدّالّ على ثبوت الصّفة للموصوف، فصفةُ الرّسوّ ملازمةٌ للجبال غير منفكّةٍ عنها، ولذا حَسُنَ هنا حذف الموصوف (الجبال) لاستقلال الوصف ﴿رَوَٰسِيَ﴾ في الدّلالة عليها، إذ الوصف هنا مَكينٌ في الموصوف مُسَمًّى به، فلا يَلتبِسُ حذفُه، وأمّا جَمعُ السّلامة (راسيات)، فهو يُقرِّبُ الصّفة إلى الحدث (الفعليّة) ويبعده عن الاسميّة، وحيث لم يُرِد دلالةَ الفِعل هنا لم يُعبّر بالجمع السّالم[2].

رسوُّ الجبال صفةُ ثَباتٍ وقرارٍ

غرضُ تنكيرِ الرَّواسي:

جاء لفظ ﴿رَوَٰسِيَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ﴾ مُنَكَّرًا، لإفادة التَّعظيمَ والتَّفْخيمَ في الصّفة، وإفادة الإبهام والتَّفْخيم في موصوفها المحذوف أي: ألقى جبالًا رواسيَ عظيمة لا يُقْدَر قَدْرُها ولا يُحاط بعظيم كُنْهِها وخَلْقِها، ولا يخفى ما في تعظيمها من إعظام خالقها وجلالِه في قدرتِه، فالغايةُ إعظام الخالق وإجلاله[3].

تثبيت الأرض العظيمة لا يكون إلّا بالرَّواسي العظيمة

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي: (رسو).
(2) فاضل السامرائي، معاني الأبنية، ص: 128.
(3) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/ 241.

بلاغةُ الإيجاز في أسلوبِ التَّعليل:

غايةُ إلقاء الرَّواسي نفيَ الميَد لا إثباتُه

جملة التّعليل في قوله تعالى: ﴿أَن تَمِيدَ﴾ تَحْتَمِلُ وقوع المَيْد ونفيه، والسّياق هو الّذي يثبت أحدَ الاحتمالين، ولمّا كان المقام مقامَ امتنانٍ، كان مضمونُ جملةِ التّعليل، انتفاءَ الميْد لا وقوعه، ولو ذَكَرَ اللّامَ، فقال: (لأن تميدَ بكم) للزِم ذكرُ أداة نفي، بأن يقال: (لئلّا تميد)، فجاء الأسلوب موجزًا خاليًا من اللّام، وحرف (في) يُعينُ على بيان المقصود، وأبلغ الكلام ما جاء موجزًا متناغمًا مع السّياق في معناه ودلالته، والكلام جارٍ على حذف مضاف، أو على حذف حرف النّفي، والتّقدير: كراهةَ أن تميد بكم، أو لئلا تميد بكم[1].

دلالةُ استعمال مفردة المَيْد:

المَيْدُ هو مَيلٌ يقع في الجانبين

في قوله تعالى: ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ عبّر بالمَيْد دون مرادفاته من الاضطراب أو التحرّك أو المَيْل، وذلك للدّلالةِ على نوعٍ مُحدّدٍ ومخصوص في الحركة والاضطراب والميْل، وهي الاضطراب الذي يؤثّر في هيئة الواقع عليه بالدّوار والدَّوَخات، والحركة التي تسري في الشّيء العظيم المنبسط الممتدّ، والميْل الّذي يقع من جهتي الشّيء يمينًا وشمالا، فميّزَه عن اضطراب الزلزلة، وعن الحركةِ الصّادمة، أو المَيْل العنيف، وميّزه عن الحركة المحدودة لمحدوديّة الجسم السّارية فيه، وميّزه عن الميل الّذي يقع من جهة واحدة[2].

دلالةُ التَّعبير بصيغة المضارع:

منعتِ الرَّواسي الاضطراب المُستَمِرَّ وحجبت الدَّمار المستتر

التَّعبير بالفعل المضارع في قوله تعالى: ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ يدلّ على نفي المَيْدِ نفيًا مستمرًّا، ففيه دَعْوَةٌ إلى الشّكر المتجدِّد، فكما أنَّ النِّعَمَ متجدّدة، فشكرُها كذلك يكون، وتُشير صيغة المضارع إلى أنَّ أسباب الميد متجدِّدة، فألقى ﷻ الرَّواسي؛ لمنعِ ما يستجدّ

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/ 241، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 8/ 179، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 11/ 275.

(2) الراغب، المفردات: (ميد)، والبقاعي، نظم الدرر: 11/ 126، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (ميد).

من أسبابٍ يكون من ورائها ميدٌ للأرض، فكشفت صيغة المضارع عن خفاءِ الأسباب المستمرة في الأرض، ومن يتفكّر في الزّلازل والهزّات، يُدرك أنَّ الأرض مضطربة أصالةً، لولا الرّواسي التي منعت الاضطراب المستمرّ، وأوقفت الدَّمار المستتر.

معنى الباء ودلالتها:

الباء في قوله تعالى: ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ إمّا أن تكون للتَّعْدِيَةِ، كما يقال: ماد الشّيء بالشّيء، إذا تحرّك به فأوقع الفعل عليكم، أو للمصاحبة، كما يُقال: ماد الشّيء بالشّيء، إذا تحرّك به، وهو معه[1].

فائدةُ تقييد جملة التَّعليل:

تعديدُ نِعَمِ الله تعالى وفضله على الناس

قُيِّدت جملة التّعليل في قوله تعالى: ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ بالجارِّ والمجرور - وهو ما يقتضيه السّياق والظّاهر - جريًا على المتقدّم من تعديدِ مظاهر الخلْق العظيمة وإسنادِ منافعها إلى ضمير الإنسان؛ للنصّ على الامتنان في كل جملةٍ استقلالًا لا تبعًا، وضمير ﴿تَمِيدَ﴾ عائدٌ إلى الأرض بقرينةِ تعليقه بقوله: ﴿بِكُمْ﴾؛ لأنّ (الميْدَ) إذا عُدّيَ بالباءِ عُلِمَ أنّ المجرورَ بالباءِ، هو الشّيء المظروف المستقرّ (الإنسان) في الظّرف المائِد (الأرض)؛ ولذا عدّاه، لأنّ الاضطرابَ بالمَيْد يعطّل مصالحَ الناس ويُلحِقُ بهم آلامًا ومُعاناة[2].

نكتةُ حذف الفعل العامل:

ذكر العوامل مَرْتَهَنٌ بقصدية السّياق وعَدَمِ الالتباس

ذُكر الفعل العامل في الرَّواسي، وهو ﴿وَأَلْقَىٰ﴾، وحذف الفعل العامل في الأنهار والسُّبُلِ؟! وتقديره: إمّا من السّياق الخاصّ، وهو الإلقاء، وإمّا من السّياق القرآنيّ العامّ، من مثل: (أجرى الأنهار) (وسلك السّبُل)، كقوله تعالى: ﴿وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ [طه: 53]، وكالتّصريح بالعامل في الأنهار في قوله: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن

(1) النيسابوري، غرائب القرآن: 4/ 249.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 121.

تَحۡتِهِمۡ﴾ [الأنعام: 6]، وقوله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلۡأَنۡهَٰرَ ٣٢﴾ [إبراهيم: 32]، وقوله: ﴿وَفَجَّرۡنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرٗا ٣٣﴾ [الكهف: 33]، وقوله: ﴿وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنۡهَٰرٗا﴾ [النمل: 61]، وقوله: ﴿وَيَجۡعَل لَّكُمۡ أَنۡهَٰرٗا ١٢﴾ [نوح: 12].

فإن قلنا بالأوّل، فالأمر واضح، لكن يُشْكِلُ عليه عدمُ مناسبته دلالة، إذِ الأنهار والسُّبُل لم تُلْقَ كالرّواسي، وإن قلنا بالثاني - وهو الأنسب - فحينئذٍ نحمل الكلام على تقدير المحذوف المفهوم من سياق الآيات الشّبيهة بتلك الآية، وهو الأوْلَى؛ بل هي طريقة القرآن في المخاطبات، حيث تُحذف ألفاظٌ يعرفها المخاطبون؛ لأنَّها المستقرّة والأسرع إلى البديهة عند السّماع، أو قياسًا على المذكور في نصوصٍ أخرى، فتحصّل من ذلك تقدير النّظم الكريم على معنى: (وألقى في الأرض رواسي، وشقّ فيها أنهارًا وسَلَك سُبُلا، أو جعل أنهارًا وسُبُلا)[1]، ونكتةُ الحذف كون الفعل العامل معلومًا للمخاطَب، وكون ذكره غير مرادٍ تعيينًا كما الأمر في الرّواسي.

غرض تنكير الأنهار والسبل:

الامتنانُ قائمٌ بالمعلومِ من الخلْق والمطْويِّ عِلْمُه

المراد بالتّنكير في قوله تعالى: ﴿وَأَنۡهَٰرٗا وَسُبُلٗا﴾ العموم؛ ليشمل جميع الأنهارِ والسُّبُل التي يعرفها المخاطَبون والّتي لا يعرفونها، وكذلك ما ذُكِرَ قبلها من تنكير الرّواسي؛ فيشمل جميعَ الرَّواسي والأنهار والسُّبُل الّتي هي معروفة وقت النزول، وغيرها مما عرِف بعدها، وما ظهر على سطح الأرض وما خفي في باطنها.

دلالة التَّعبير بالسُبُل دون الطُّرُق:

السَّبيلُ طريقٌ مَسلوكٌ خَلقًا والطُّرق بصنع الإنسان

عبّر بالسُّبُل في قوله تعالى: ﴿وَسُبُلٗا﴾ دون الطُّرُق، للدِّلالة على سهولتها وسعتها، فهي مسلوكةٌ بفعل الخلقِ الرَّباني، ولو عبّر بالطّريق؛ لأشْعرَ بنوعٍ من المشقَّة في السّير فيها؛ لأنَّها تكون حينئذٍ

(1) السّمين الحلبي، الدر المصون: 7/ 202، وابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 12/ 33.

طُرُقًا، قَد سُلِكَت الطّرُقُ بالأقدام؛ ففيها إشعارٌ بالسعي والعمل والمجهود، ولو قيل: إنّ ذلك قد يقع على وجْه السُّهولة، فيقال: إنّ ذلك يُستفاد من لفظ (سبيل)، لا لفظ (طريق)[1].

بلاغةُ جملةِ الرَّجاءِ:

مظاهرُ الخَلْقِ دالَّـةٌ على سُبُل الاهتداءِ

عبّر النَّظم الكريم بأداةِ الرَّجاء في بيان الغاية من خلق الجبال والأنهار والسُّبُل في الأرض، في قوله تعالى: ﴿لَّعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾، ولم يَقُلْ: (لتهتدوا)، بدون حرف الرَّجاء،؛ لتضمين الغاية المذكورة من معنى التعطّف في سياق الامتنان بتلك المخلوقات، وفائدة التعطّف إظهار معنى الاختصاص في تبليغهم غاية الاهتداء، فهو مبالغةٌ في إظهار الغاية من قوله: ﴿وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ﴾، وتأكيدٌ عليها باصطحاب ما يفيد الإشفاق والتّنصّح باعتبار حال المُخاطَبين، وهو لفظ ﴿لَّعَلَّكُمۡ﴾[2].

توجيه الاهتداءِ بين الحسيِّ والمعنويِّ:

عطايا الدُّنيا هادياتٌ لعطاء الآخرة الباقيات

الهداية المذكورة في قوله: ﴿لَّعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾، هي الهداية القلبيّة إلى دلائل التّوحيد والإيمان بالخالق العظيم، والهداية النفعيّة الحسّيّة بتحقيق المقاصد والأغراض الدنيويّة من تلك المُسَخَّرات، ولم يقل: (لتهتدوا)، بحذف (لعلكم) كما في اللّحاق: ﴿وَعَلَٰمَٰتٖۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾؛ لعدم التّكرير؛ لأنّ غرض المعنى المفهوم من لفظ (لعلكم) متحقّقٌ كذلك في قوله تعالى: ﴿وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾، فلم يَقَعِ التّكرار لثلاثة أسباب:

الأوّل: لكون قوله: ﴿لَّعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾ متضمّنًا لمعنَيَي الهداية (الإيمانيّة والدنيويّة)، والجمع بين الهدايتين قد يتخلّف، ولذا عبّر بجملة الرَّجاء والتّوقّع بحسب حال المخلوقين في ذلك.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سبل)، والراغب، المفردات: (سبل).
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/ 384.

الثّاني: أنّ قوله: ﴿وَعَلَٰمَٰتٖۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾ فرعٌ عن قوله: ﴿وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَأَنۡهَٰرٗا وَسُبُلٗا﴾؛ لأنّ العلامات كائنة في الجبال والأنهار والسُّبُل، والنّجم كاشفٌ للمواقيت والاتجاهات في تلك المذكورات، فكأنّه ذكر أصل المنّة، ثمّ أتبعه بأدوات الانتفاع بها، فناسب في الأولى رجاء الاهتداء، وناسب في الثّانية الجزم بالاهتداء، لكمال تحقّقه وعدم تخلّفه بالعلامات وبالنّجم، ولذا أتى بضمير الفصل لتأكيد الانتفاع ﴿هُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾.

الثالث: أنّ الاهتداء في قوله: ﴿وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾ هو الاهتداء النفعيّ الدنيويّ، وليس المراد منه الجمع بين الهدايتين كما في الآية قبله، ولذا جزم به هنا لعدم تخلّفه[1].

توجيهُ حذف متعلق فِعْل ﴿تَهۡتَدُونَ﴾:

عمومُ الهدايةِ الدُّنيويَّة والأخرويّة

حُذفَ متعلّق فِعْل ﴿تَهۡتَدُونَ﴾، فلم يُعيّن؛ وذلك للإيجاز وقصد التَّعْميم، بإرادة جميع مسالك الهداية الّتي يصلح تَعَلُّقُها بالسّياق المذكور، فيتناول الجمع بين هداية الدُّنيا وهداية الدّين، أي: لعلكم تهتدون إلى مقاصدكم، ومرادكم، ومنافعكم، وتحقيق مصالحكم، والدِّين الحقِّ، ومعرفة الحقّ من الباطل، وتمييز الصّدق من الكذب، فتقدير المنافع الدُّنْيَويَّةُ بالعبارة، والمنافع الأُخْرَويَّةُ بالإشارة، وذلك أنَّ من أوجد سُبل الهداية الدُّنْيَويَّةِ، حقيقٌ به أن يدلَّ العبادَ على سبل الهداية الأُخْرَويَّةِ.

نكتةُ التَّعبيرِ بصيغة المضارع:

استمرارُ الهداية باستمرار أسبابها

التّعبير بالفعل المضارع في قوله: ﴿لَّعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾ يفيد استمرار إمكانيّة حصول الهداية في الحال والاستقبال؛ لأنّ الهداية مستمرّة باستمرار أسبابها، والمعجزات الكونيّة المذكورة مستمرّةٌ

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/ 243.

في وجودها وفي عوائد نفْعها، فلا جَرَمَ أن يستمرّ حصول أثرها من الهداية لمن باشَر النّظر فيها واجتهد في الاستفادة منها.

موقع ﴿وَعَلَٰمَٰتٍ﴾ وأثره في تنوّع المعاني:

كـلُّ المخلوقاتِ علامـاتٌ دالَّـةٌ على الخالق

قوله: ﴿وَعَلَٰمَٰتٍ﴾ منصوب بفعل مضمر، أي: ووضع علامات، أو معطوف على رواسي بتضمين ﴿وَأَلْقَىٰ﴾ معنى الجعل، أي: ألقى في الأرض رواسي وأنهارًا وسبلًا وعلامات، وعلى هذين الوجهين يكون في الكلام تقديم وتأخير، أي: ألقى في الأرض رواسي، ووضع فيها علامات؛ لتهتدوا بها إلى مقاصدكم.

ويصحّ أن تكون جملة: ﴿وَعَلَٰمَٰتٍ﴾ في موقع الحال من ﴿رَوَٰسِيَ﴾ وما عطف عليه، يعني: خلق لكم هذه الأشياء حال كونها علامات تهتدون بها، ويجوز أن تكون مفعولًا لأجله، يعني خلقها لنا؛ لأجل أن تكون علامات نهتدي بها[1].

فائدةُ الفصل بين المعطوفات:

العلامات هي طريق الاهتداء الحسي الذي يضعه الناس، أما السّبل، فهي ما خلقه الله سبحانه في الأرض الدّال على حكمته وربوبيَّته، فكان الفصل بين ﴿وَسُبُلًا﴾ ﴿وَعَلَٰمَٰتٍ﴾ بقوله تعالى: ﴿لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ إيماءً إلى أن العلامات هي للاهتداء الحسي؛ لأن ﴿لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ تَحْتَمِلُ الحِسيَّ والمَعْنَويَّ[2].

الـعـلامـاتُ لـلاهـتـداء الـحـسي، وما قبلها للحسي والمعنوي

كما أنَّ قوله تعالى: ﴿وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ مَعْطوفٌ عَلَى جُملَةِ ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ﴾؛ لاتّحادهما في الغاية المرادة منهما، وهي الاهتداء والإرشاد إلى المنافع والمصالح في المعاش، وكأنّ المعنى: ألقى في الأرض رواسي لعلكم تهتدون، وبالنَّجم يهديكم كذلك؛ لِأنَّها في مَعْنَى: وهَداكُم بِالنَّجْمِ فأنْتُم تَهْتَدونَ بِهِ[3]، وجاءت بعد قوله:

علامـاتُ النَّهار مـقـدَّمـةٌ على علامات اللَّيل

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/ 384.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 191.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 122.

﴿وَعَلَٰمَٰتٍۚ﴾ لِحسنِ المناسبة بينهما، فالعلامات تهدي السّائرين في البرّ بالنهار، ومواقع النَّجْم تَدُلُّ السّائرين في الليل لا سيّما البحّارة في الماء، فذكر أدوات الاهتداء في الليل والنهّار والبَرّ والبحر[1].

معنى تعريف النَّجم:

تعريف (النَّجْم) في قوله: ﴿وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ للجنس، فيشمل كلّ النُّجوم التي يستعين بها الناس لمعرفة الأماكن والأوقات[2].

بلاغةُ تقديم شبه الجملة:

تـقـديـمُ محل النِّعمة، ومراعاة الفواصل

قدّم الجارَّ والمَجرورَ في قوله تعالى: ﴿وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ على جملة الإسناد؛ لأنّه محلّ المنّة وموضع الإنعام، والنّفسُ توّاقةٌ إلى تذكيرها بالنّعمة؛ لِتَخْرجَ من غفلتِها وسَهوِها، ولِتتفاءل وتستبشِر أنّها محلّ عنايةِ الله بالإنعام عليها، ولم يَقُلْ: (وهم يهتدون بالنَّجم)، لمراعاة الفواصل، وهو غرضٌ لفظيٌّ صوتيّ؛ لأنّ الختْم في الفاصلة بـ﴿يَهْتَدُونَ﴾ أمكَنُ لفظًا وأنسبُ صوتًا؛ ولأنّ سياق الامتنان يقتضي تقديمَ النعمةِ في الذِّكْر على المُخاطَب؛ لتعلّق القصد بها تعلُّقًا أوّليًّا، وكذا هي مُقدَّمَةٌ بداهةً على الغايةِ منها وهي الاهتداء، إذ لا يَبينُ الأثَرُ إلا بالإفصاح عن السَّبب المؤثِّر أوّلًا.

نكتةُ تقديم المسند إليه على المسند الفعليّ:

عـلـوُّ النـجـم في دلالته وهدايته على غيره

قدّم المسند إليه، وهو ضمير الفصل ﴿هُمْ﴾ على المسند الفعليّ في قوله تعالى: ﴿وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾، وقدّم متعلّق ﴿يَهْتَدُونَ﴾ وهو الجارّ والمجرور؛ لإفادة الاختصاص في الجارِّ والمجرور (المتعلَّق)، والاختصاص في المسند إليه، كأنه قيل: وبالنَّجم خصوصًا هؤلاء يهتدونَ، وفي إفادة الاختصاص بتقديم (النّجم) تنبيهٌ على أنّ النّجم في دلالتِه وهدايتِه يعلو غيرَه في الرّتبة والمقام،

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 20/ 191، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 122.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/ 243، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 122.

فدلالةُ غيره نازِلةٌ عن دلالتِه، وفيه دلالةٌ على أنّ الاهتداء بالنَّجمِ من أجلِّ النِّعم؛ لأنّهم يكونون مهتدين به في مظانِّ الهلاك حيث البحر والليل؛ ولذا قدّمه[1].

براعةُ الالتفاتِ من الخطاب إلى الغيبة:

تتبايَنُ التوجيهات في المحلّ الواحد بتبايُن الاستنباطات منه

التفت الخطاب في قوله تعالى: ﴿هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ إلى الغيبة، بعد أن كان خطابًا في قوله تعالى قبلها: ﴿تَمِيدَ بِكُمْ﴾، وقوله: ﴿لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾، ولو اطّرد النَّظم؛ لقيل: (وبالنَّجم أنتم تهتدون)، وغرض الالتفات يحتمل أمرين:

الأول: العموم؛ لأنّه "لمّا كانت الدِّلالة بالنَّجم أنفع الدلالات وأعمّها؛ وأوضحها برًّا؛ وبحرًا؛ ليلًا ونهارا؛ نبّه على عِظَمها بالالتفات إلى مقام الغيبة؛ لإفهام العموم؛ لئلا يُظَنّ أنّ المخاطب مخصوصٌ؛ وأنّ الأمر لا يتعدّاه؛ فقال تعالى: ﴿وَبِالنَّجْمِ هُمْ﴾؛ أي: أهل الأرض كلّهم؛ وأولى النّاس بذلك أوّل المخاطَبين؛ وهم قريش؛ ثمّ العرب كلّها؛ لفرط معرفتهم بالنّجوم"[2].

الآخر: الخصوص، وهم السّيّارة والملّاحون المُباشِرون؛ لمُطالعة النّجوم حال سَيْرِهم ورحلَتِهم، بخلاف الاهتداء المذكور في أسلوب الخطاب ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾؛ فإنّه عامٌّ في معناه، فيشمل المعاش والمعاد، وعامٌّ في أفراده، فيشمل السّائرين وغير السّائرين، فحصول المقاصد وتحقّق المنافع حاصلٌ للإنسان من الجبال الرّواسي، والأنهار والسُّبُل وإنْ لم يَمُرّ عليها أو يعبّر بها؛ لأنّ منافعها تتعلّق بوجود الإنسان نفسِه لا بهيئةٍ خاصّةٍ فيه أو في مكانه وزمانه، بخلاف النَّجم، فإنّما يَهتدي

(1) الزمخشري، الكشاف: 2/ 599، والبقاعي، نظم الدرر: 11/ 128، والقونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 11/ 244، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 122.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 11/ 128.

به السّائر المارّ كالعلاماتِ التي لا يُنتفَع بها إلا بملابسة السّير والسّعي في الأرض؛ فإفادة العموم وإفادة الخصوص على اعتبارين متباينينِ لا يُشْكِلُ تواردهما على نفسِ المحلّ[1].

نكتةُ استعمالِ صيغة المضارع:

الاهتداءُ بالنَّجم باقٍ وإن فتر فسيقوى بعد فترة

التّعبير عن اهتدائهم بالنّجم بصيغة المضارع في قوله تعالى: ﴿وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾؛ لإفادة أنّ استدلالهم بالنّجوم مستمرٌّ مع الزّمن، فلا ينقطع انتفاعهم بالنُّجوم في أمور معاشهم وسلامة أحوالهم، وفي الآية إشارةٌ إلى أنَّ الاهتداء بالنُّجوم سيبقى قائمًا، وأنَّ ما وصل إليه الإنسان المعاصر من تطور علميٍّ، لا يُلغي الاهتداء بالنَّجم، فإنَّه أصلٌ قائم؛ إن فتر الاهتداء به فترةً، فسيعود بعد فتور، كما أنَّ فيه إشارةً إلى الهداية المعنويّة، فمن ينظر في النُّجومِ يعلم ما فيها من الأدلّة على الخالق المتفرِّد سبحانه.

نكتةُ حذف متعلّق فعل الاهتداء:

اتّساع النِّعم في آمادها وعمومها في مآلها

حُذف متعلّق فعل الاهتداء في قوله تعالى: ﴿وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾ فلم يقل: (هم يهتدون بالنَّجم إلى مساكنهم أو تجارتهم أو مطالبهم)؛ لأنَّ المقصود العموم، وهو أرسخ في سياق الامتنان.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الميَل والمَيَد:

الميل نزوحٌ والمَيَد تردّدٌ

المَيْلُ: هو انحرافٌ في الشّيء إلى جانبٍ منه، فيُقالُ في العدول عن الوسَطِ إلى أحد الجانبين، ويُسْتَعْمَلُ في المعاني والأجسام، وهو بخلاف المَيَد الذي يستعمل في الأعيان والأجسام، وهو حركةٌ واسعة، تتردّد في جانبي الشّيء يمينا وشمالا، وليس في جنبٍ واحدٍ منه، ويمكن القول: إنّ المَيْل نزوحٌ بالقصد والحركة يستقرّ في أحد

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 122.

الجانبين دون الآخر، فالمُعتبَر فيه طَرَفٌ واحد وإهمال الطّرَف الآخر سواء كان عينًا أم معنى، وأمّا الميْد، فهو تردّدٌ في جانبين، وليس نزوحًا إلى أحد الجانبين، ويكون في الجسم العظيم المتّسِع، بخلاف الميل، فتعلّقه عامٌّ في العظيم وغيره[1].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (ميد - ميل).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السادس والعشرون،
سورة النّحل من الآية 1 إلى الآية 71
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السادس والعشرون، سورة النّحل من الآية 1 إلى الآية 71
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 26 ، 804 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-23-4
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 26 : المجلد السادس والعشرون، سورة النّحل من الآية 1 إلى الآية 71.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-23-4
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9758876 بتاريخ 2024/11/15م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»